أصبح فى الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندى من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرة التى لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هى القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتى بالخَلْق فى كل مراحل القسمة العقلية المنطقية فى هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هَيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[1] سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) الفرات : العَذْب . فقوله تعالى : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ..﴿١٢﴾﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا فى صورة حسية مُشاهدة ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى فى الحسِّ ، كذلك فى القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشىء واحد هو الماء ، فهما وإن اشتركا فى الشىء الواحد وهو الماء فهما مختلفان فى النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] أى : شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ (١٢)﴾[فاطر] سهل المرور فى الحلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب فى التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحى ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفى ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقى بنفس الماء ، لكن يخرج الطَّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (٤)﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحبب مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. (٨)﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

---

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلمْ ، بل يعرفها الإنسان فى وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح فى البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهى إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة فى الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هى مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذى تجرى به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء فى بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع فى منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع فى منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية فى البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح فى البحار والمحيطات ، وقُلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد فى نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للريّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافى لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] فى المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما ... أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ
كَالبَحْرِ يُمطِره السَّحَابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليه لأنه مِنْ مَائهْ

ومعلوم أن الماء فى الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها :
﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ ﴾ [الذاريات]

فالماء الذى خلقه الله فى الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى فى جسمه من نسبة المائية وهى ٩٠ فى المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهى إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابى ، وقد ذكرهما له ابن معصوم فى كتابه « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشَاهَد دليلاً على صدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ ..(١٢) ﴾[فاطر] أى : من الماءيْن العذب والمالح ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحيَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢) ﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٢) ﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نعَم البحر :﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢) ﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿ مَوَاخِرَ (١٢) ﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شَقّاً فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾[الرحمن] يعنى : كالجبال الشامخة . نقول : ومتى ظهرتْ السفن العملاقة التى تُوصَف بهذا الوصف ؟ إنها لم تظهر إلا فى العصر الحديث ، وكانت قَبْلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذى أخبر سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجارى الآن فى صناعة السفن ، حتى إنه لَيُخيَّل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر .

وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢) ﴾[فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله فى حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾[فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى : لعلكم بعد كل هذه النعم تقابلونها بالشكر ، وفى هذا إشارة إلى قِلَّة مَنْ يشكر .

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ (١٣) ﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان فى بعض الأحايين ، لكن يطول الليلُ فى الشتاء فيأخذ جُزْءاً من النهار ، ويطول النهار فى الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طُول أحدهما نَقْص من الآخر ، هذا معنى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣) ﴾[فاطر] يعنى : يُدخِل هذا فى هذا .

وظاهرة إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ناشئة من ميل المحور ، فالحق سبحانه كما وزَّع الماء وحفظه فى البحر الواسع ، كذلك وزَّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور المائل لاحترقتْ الجهة المقابلة للشمس وتجمدتْ الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذى يعيش عند القطب الشمالى أو القطب الجنوبى حرارته ٣٧° مثل الذى يعيش عند خط الاستواء ، لأن الجسم البشرى مبنيٌّ على هندسة خاصة تحفظ له حرارته المناسبة أيّاً كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التى تناسبه مع أن الأعضاء كلها فى جسم واحد ، والحرارة تُشِعُّ وتستطرق فى المكان كله .

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدى وظيفته الطبيعية إلا فى درجة حرارة ٤٠°، والعين لا تزيد حرارتها عن ٧°، فمَنْ يمنع حرارة الكبد أن تستطرق فى الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق ﴿ الَّذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۝ ﴾ [القمر] يعنى : ذلَّلهما للإنسان ، وجعلهما فى خدمته دون قدرة له عليهما ، ودون إرادة منه ، فالشمس والقمر آيتان فى الهيكل العام للكون لا دَخْلَ للإنسان فيهما ، ولو كان له دَخْل لَفَسد أمرهما وما استقام ، وصدق الله : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. ۝ ﴾ [المؤمنون]

فإنْ قُلْت : إفساد الإنسان فى الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون إفساده للسماء ؟ قالوا : ألم يتمَنَّ قوم أنْ تسقط السماءُ عليهم ، فقالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ۝ ﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحقُّ أهواءَ هؤلاء لَخَربَتْ الدنيا .

وهذه مسألة تكلمتْ فيها المدرسة الفلسفية فى ألمانيا أمام مدرسة أخرى ، وكان لهما رأيان متناقضان ، وهما فى عصر واحد ، وكل منهما تتخذ من رأيها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله ، وهذا عجيب .

فواحدة تقول : لا شذوذ فى العالم ، فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (بالميكانيكا) ، ولو كان لهذا الكون إله خالق لاختلف الخَلْق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول : إن الكون لا يسير على نظام ثابت ، بل يحدث فيه شذوذ فى الخَلْق ، بدليل أن البعض يُولَد مثلاً مُعوَّقاً ، ولو كان للعالم إله خالق لجاء الخَلْق واحداً مستوياً لا اختلافَ فيه .

سبحان الله ، فهم يريدون الإلحاد على أيِّ وجه ، فمزاجهم أنْ يلحدوا .

ونقول لهؤلاء : تعالوا نردّكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء : يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود ، ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود ، لكن الجهة مُنفكة ، كيف ؟

النظام الثابت الذى لا شذوذَ فيه موجود فى الكون العلوى الذى يسير على رتابة ونظام لا يتخلَّف ، فحركة الشمس والقمر والكواكب والأفلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختلُّ أبداً ، والآن استطعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والخسوف ، وفعلاً نشاهده فى وقته بالضبط .

إذن : إنْ أردتَ الثبات دليلاً فَخُذْه من الأفلاك العليا ؛ لأنها لا بُدَّ

أنْ تُبنى على نظام ثابت لا شذوذ فيه . وإلا لاختَلَّ الكون كله .

فإنْ كنت تريد الشذوذ فشاهده في الجزئيات ؛ لأن شذوذ الجزئيات لا يؤثر على النظام العام للكون ؛ لذلك ترى : هذا سليم ، وهذا أعمى ، وهذا أعور .. إلخ . إذن : الثبات في موضعه لحكمة والشذوذ في موضعه لحكمة ، وهذا وذاك دليلان على وجود الإله الخالق القادر .

وقوله تعالى ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (١٣) ﴾ [فاطر] أي : الشمس والقمر يجرى كل منهما إلى وقت معلوم يتم فيه فَنَاؤهما ونهايتهما ﴿ ذَٰلِكُمُ (١٣) ﴾[فاطر] أي : الذي فعل هذا وقدَّره ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ(١٣) ﴾[فاطر] أي : العالم المحسّ المشاهَد لك ، أما الذي لا تراه من مُلْك الله فهو عَالَم الملكوت ، وهو ما غاب عنك ، ولا تدركه حواسُّك .

لذلك لما نجح سيدنا إبراهيم في الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾[البقرة] أعطاه الله منزلة عظيمة ، وأطلعه على الملكوت الذي غاب عن غيره ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٧٥) ﴾[الأنعام] وما يترتب من عالم المُلْك المشاهد لنا ناشيء عن عالم الملكوت الذي لا ندركه .

والحق سبحانه وتعالى يشير إلى هذا العالم - عالم الملكوت - في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال]

كيف ، ونحن ما اتقينا الله إلا بالفرقان أي : بالقرآن ، فما معنى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] ؟ قالوا : الفرقان هنا أن يُريك الله ملكوتَ السموات والأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] يعنى : إنْ كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا ، وسخَّر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدَّعاة المزعومة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] فما القطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يجده يُولى اهتماماً كبيراً للنخلة ، وأول ما خاطب خاطب العربَ ، وهم أول مَنْ وُوجهوا بالإسلام ودُعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى البيئة العربية ، ولها فى ديننا منزلة ، حتى أنه نُسِب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عمتكم النخلة »(١)

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى قاله لم يَقُلْهُ من فراغ ، ولا بُدَّ أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »(٢)

فلما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه : لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فبكَّر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ،

---

(١) تمام الحديث : « فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال : ضعيف . قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣/١٩٤) : « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف الخفاء ١/١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وتمامه « وإنها مثل المسلم ، فحدِّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله بن عمر : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة » .

إن ابنى عبد الله قال عن الشجرة التى ذكرتَ أنها النخلة . فقال : صدق ، فقال عمر : فوالله ما يسرنى أنْ يكون لى بها حُمر النعم ، يعنى : فرح أن يفهم ابنه[1] مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات النسب بين الإنسان والنخلة ، وأنها ربما تكون قد خُلقَتْ من بقية طينة سيدنا آدم ، فقالوا : إن رائحة طلع النخلة الذى يتم به التلقيح هى نفس رائحة المنىِّ عند الإنسان ، وهذا يرجح صِدْق قول مَنْ قال إنها عمَّتنا .

وفى خَلْق النخلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفى أن كل ما فيها نافع ، ولا يُرْمى منها شىء ، وقد جعلها الله موضعاً للمثَل والعبرة ، فلما حدَّثَ العرب عن الهلال ، قال : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾ [يس]

والعرجون هو السُّبَاطة التى تحمل البلح حين تيبس تلتوى وتتقوَّس ، فقرَّب لهم الأعلى بذِكْر الأدنى المعروف لهم .

خُذْ مثلاً نواة التمرة ، وهى أهون ما يكون ، إلا أن الله تعالى كرَّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالاً توضيحية . ذكر القطمير الذى معنا فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣)﴾[فاطر] وهو الغشاء الشفاف الذى يحيط بالنواة ، ونجد مثله بين بياض البيضة وقشرتها .

وذكر النقير فى قوله سبحانه : ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) أخرج هذه الرواية البخارى فى صحيحه (١٣١) ، وفيها أن ابن عمر قال : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا .

نَقيراً ﴿١٢٤﴾ ﴾[النساء] والنقير تجويف صغير ، أو نقرة فى ظهر النواة .

وذكر الفتيل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ ﴾[النساء] والفتيل خيط أبيض تجده فى بطن النواة ، وهذه الثلاث : القطمير والنقير والفتيل تُضرب مثلاً للشىء اليسير المتناهى فى القلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوه ويتوسل إليه ويكلمه .. الخ ، لكن هيهات فهذا حجر لا يسمع ، فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ، ومعنى ﴿ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر] أى : الآلهة التى لا تعقل ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره .

لكن ، لماذا عبد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعلمون أنها حجارة نحتوها بأيديهم ، ويرونَ أن هَبَّة الريح تُوقع معبودهم ، وتُلقيه على الأرض ، وتكسر ذراعه ، فيحتاج إلى مَنْ يصلحها ، شىء عجيب أنْ تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين فى النفس البشرية .

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وآفة التدين أن له مطلوبات ، فما

المـانع أنْ يذهـب الإنســانُ إلى تدين يرضى هذه الـفطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبـدت الأصنام ، وعُبدت الكواكب والأشـجار وجُعلَت آلهة .

ومعنى العبـادة : أنْ يطيع العابد أمر معبوده وينتـهى عن نَهْيه ، فإذا لم يكن هناك أمـر ولا نهى ، فالعبادة ساقطة باطـلة ؛ لأنك تعبد إلهاً بلا منهج ، وإلا فبماذا أمرتهم هذه الآلهة وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

وقوله تـعالى : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا (١٤) ﴾ [فاطر] أى : على فرض أنهم عبدوا بشراً يـسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ (١٤) ﴾ [فاطر] يعنى : ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة . ومثال ذلك : الذين عبدوا عيسى عليه السلام من دون الله .

وقد تناول الشاعر هذه المســألة حين تخيَّل أن غار ثور يَغَار من غار حراء ؛ لأن النبى ﷺ جعله مكاناً للخُلْوة وللتعبُّد ، وفيه نزل عليه أول الوحى ، فلمـا نزل النبى ﷺ فى هجـرته بغـار ثور فـرح ثور ، ورأى أن الرءوس قـد تسـاوتْ ، فـحراء لـبعـثـة رسـول الله ، وثور لهجرته ، التى كانت منطلقاً للدعوة .

يقول الشاعر(١) :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حـين تَـرَى الرُّوحَ أَميناً يَغْذُوكَ بالأَنْوارِ
فَـحراءٌ وثَوْرُ صَـارَا سَـواءً بهمـا اشفَعُ لأمَّـة الأحْجارِ
عَـبَـدُونَا ونحْـنُ أعْـبَـدُ لله من القـائمـين بـالأَسْحَارِ

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

تَخِـذُوا صَـمْـتنا عَـلَيْنَا دَلِيـلاً فَـغَـدَوْنَا لـهـم وَقُـودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كمَا قَدْ تجنَّوْه عَـلَى ابْـنِ مَـريمَ والحوَارِى
لِلْمغَـالِى جَزَاؤهُ والمغَالَى فـيه تُنجِيـه رحـمـةُ الغَفَّـارِ

فـالحجـر ذاته يأبى أنْ يُعبـد من دون الله ، ويعلم فى حـقيـقتـه قضية التوحيد ، ويخرُّ لله مُسبِّحاً ، فما بالك بالبشر ؟

لذلك سنرى فى موقف القـيامة العـجب من المعارك والمناقـشات بين العابد والمعبود ، والتـابع والمتبوع ، يقول تعالى : ﴿إِذْ تَبرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة] وقال حكايةً عن الذين ضلُّوا : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَـلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

وهـنا يقول سـبحانه : ﴿وَيَوْمَ الْقِـيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (١٤)﴾ [فاطر] أى : هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتخـذتموهم آلهة سيتبرأون منكم ومن شرككم ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾ [فاطر] أى : عالم ببواطن الأمـور ، وكـأن الله تعالـى يقول لك : أنـا أخبـرك بمـا سـيكون فى المستقبل فَخُذْ من صدقى فيما مضى دليلاً على صدقى فيما هو آت ، ومن صدقى فيما تشاهد دليلاً على صدْقى فيما غاب عنك .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ (١٧)﴾

النداء فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] نداء عـام للناس جـمـيعـاً ، المؤمن والكافـر ، والطائع والعاصى ﴿ أَنتُـمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللَّـهِ وَاللَّـهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر] هذه حقـيقة يُذل الله بها كـبرياء الذين تأبَّوْا على الإيمـان بالله ، وتمـردوا على منهج الله ، وكـأن الله تعالى يقـول لهم : ما دُمْتم قد أَلفْتم التمرد فتـمردوا أيضاً على الفقر إنْ أفقرتُكم ، وعلى المـرض إنْ نزل بكـم ، تمـردوا على المـوت إن حـان أجلكم ، إذن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها .

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَـمِـيـدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فـاطر] أى : الغنَى المطلق ، ومـعنى ﴿ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] أى : المحـمود كثـيراً ، والغنى لا يُحـمد إلا إنْ أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى الممسِك لا يُحمد بل يُذَم .

ثم يُذكِّـرهـم الحق سبـحانه بحـقيقـة أخرى غـابت عنهم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾[فاطر] كما قـال فى موضـع آخر : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾[محمد] ومعنى : خلق جديد : الشىء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه ، مثل الثوب الجديد يعنى الذى فُرِغ من خياطته ولم يُلْبَس بعد .

وإعادة الخَلْق أو الإتيان بخَلْـق جديد أمر هيِّن على الله ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾[فاطر] يعنى : ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأتى له الخَلْق طواعية ، ويؤمنون به سـبحانه ، وهم قادرون على الكفر ولهم مُطْلَـق الاخـتيار ، وهذا الاخـتيار مـوطن العظمة فى دين الله .

وسبق أنْ مثَّلنا هذه القضيـة بأنه لو أن لك عبدين أمسكتَ الأول

إليك بسلسلة ، وتركتَ الآخر حراً ، وإنْ ناديتَ على أحدهما لبَّى وأجاب ، فأيهما يُعَدُّ الأطوع لك . كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكراهية ، فالله سبحانه كما قلنا لا يريد قوالبَ تخضع ، إنما يريد قلوباً تخشع .

والإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن يسير على الله تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكُنْ فيكون ، وهذا من الله تعالى لا يحتاج إلى زمن .

ولو أردتَ أن تستقصى هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس] تجد أن الشيء فى الحقيقة موجود بالفعل ، لكن فى عالم الغيب والأمر ، له أن يظهر لنا فى عالم الواقع ؛ لذلك لما سُئِلَ أحد العارفين قال : أمور يبديها ، ولا يبتديها.

وتلحظ فى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾[فاطر] ذكر ضمير الفصل (هو) فلم يَقُلْ الحق سبحانه : والله الغنى ، وهذا الضمير أفاد توكيد الخبر وقصر الغنَى على الله سبحانه وتعالى ، لذلك قلنا : إن هذا الضمير لا يأتى إلا فى المواضع التى تحتمل شبهة المشاركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء]

فجاء هنا بضمير الغائب (هو) لأن الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء من المرض كلها مظنة أنْ يشاركه فيها أحد من الخَلْق ، أما فى الحديث عن الموت فقال : ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] ولم يأتِ هنا بضمير الغائب ؛ لأن الموت والإحياء لله وحده ، ولا

شبهةَ فيهما ، ولم يدَّعهما أحد لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] حِمْل نفس أخرى ؛ لأنها هى الأخرى مُثْقَلة بحمْلها ، والوزر هو الحمْل الثقيل الذى لا يطيقه الظهر ، ومنه قوله تعالى فى مسألة الوحى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح] يعنى : أتعبك نتيجة التقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصَّد جبينه عرقاً من لقاء جبريل ، وهو الذى قال مُصوِّراً هذا اللقاء : « ضمَّنى حتى بلغ منى الجهد »[1] وعاد إلى أهله يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى . ومع هذا كله لما فتر الوحى اشتاق إليه وتمناه أنْ يجىء ، لأنه ذاق حلاوته ، وحلاوة الشىء تُنسيك ما تلاقيه من المتاعب فى سبيله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى ، قاله ابن حجر فى فتح البارى (١/ ٢٤) .

والمعنى : لا تحمل وزر وذنب نفس أخرى مُثْقَلة بالذنوب والآثام ، وقد شرح الحق لنا هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس] فكلٌّ مشغول بنفسه ، مُرْتَهَنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ؛ لذلك يقول الوالد لولده : يا بُنى حِمْلى ثقيل علىَّ ، فخُذْ عنى شيئاً منه . فيقول الولد : حسبى حِمْلى يا أبى .

كذلك هنا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا (١٨)﴾[فاطر] أى : نفسى مُثْقَلة بالآثام تطلب مَنْ يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولكن هيهات ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١٨)﴾ [فاطر] أى : لو كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمل نفسٌ وِزْر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحِمْلها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّب الحق سبحانه قَوْل الذين كفروا حين يتعرَّضون لحمل خطايا أتباعهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾ [العنكبوت]

إذن : هذه مسألة واضحة ، فكلٌّ مشغول بنفسه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط إما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمنقذ يستنجد به ، وإنْ لم يكن قريباً ولا صديقاً ، لكن يوم القيامة ستنحلُّ كل هذه العُرَى ؛ لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التضحيات .

لذلك لما سمعتْ السيدة عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألت رسول الله : كيف يقف الناس عرايا ينظر بعضهم إلى عورة بعض ؟ فأجابها رسول الله أن كل امرىء مشغول بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أنْ ينظر أحد لعورة أحد فى هذا الموقف(1) .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (١٨) ﴾ [فاطر] يعنى : إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموها الخير الكثير الذى أراده الله لهم ، ظلموها حين غرَّتهم الدنيا بنعيمها الفانى ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقى الدائم .

والإنذار : التخويف من شَرٍّ قبل أوانه لتتوقَّاه ، والفرصة سانحة قبل أنْ يداهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أنْ تحثَّ ولدك على المذاكرة وتحذره من الإهمال الذى يؤدى إلى الفشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ليتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال .

والإنذار والتخويف لا يُجدى إلا مع مَنْ يؤمن بما تُخوِّفه به ، فحين ينذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا مَنْ يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة .

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم (١٨) ﴾ [فاطر] الخشية هى الخوف ، لكن بحب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٥٣) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فأنت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تخافه وأنت كاره له ، إنما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا الخوف رجاء وطمع فى رحمته تعالى ، فأنت تسير فى رحلة حياتك بجناحين : خوف من العذاب ، ورجاء فى الرحمة .

والإنسان ينبغى ألاَّ ينظر إلى الفعل فى ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل ، فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم[1] عند رسول الله ، فحكى الله عنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فى حين سمعه آخر[2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[3] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فَلاَنَ قلبه له ورَقَّ فأسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

---

(١) المقصود بهم المنافقون . ذكره السيوطى فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٥٤) وابن كثير فى تفسيره (٤/١٧٧).

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحددوا وصفاً للقرآن ليجتمع رأيهم فى رأى واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم فى موسم الحج . فقال بعضهم : هو كاهن . فقال الوليد : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . وقال بعضهم : مجنون . فقال الوليد : لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . وقال بعضهم : شاعر . فقال الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . [ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ١/٢٨٣ ، ٢٨٤] .

(٣) الطلاوة : الرونق والحُسْن . [لسان العرب - مادة : طلى] .

فَرْق بين مَنْ يسمعه وهو له كاره ، فيغلق عليه وبين مَنْ يستقبله بقلب وَاعٍ مفتوح لإشراقات القرآن وتجلياته .

ألاَ ترى أن الحديد يستجيب لك حين تطرقه وهو ساخن ، فيصير كالعجينة فى يدك ، أما إنْ طرقْته وهو بارد فإنه لا يتفاعل معك ، كذلك قلنا مثلاً : إنك فى اليوم البارد تنفخ فى يدك لتشعر بالدفء ، وتنفخ أيضاً فى كوب الشاى مثلاً لتبرده ، فكيف تجتمع هذه المتضادات لفعل واحد ؟ نقول : لأن الفاعل وإنْ كان واحداً إلا أن المستقبِل للفعل مختلف .

كذلك إنذاره ﷺ إنذار واحد ، لكن استقبله قوم بخضوع ورغبة فى الهداية فآمنوا ، واستقبله قوم بعناد وإصرار فلم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا بثمرته .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (١٨) ﴾ [فاطر] دلتْ على أن الإيمان اكتمل فى نفوس هؤلاء اكتمالاً يستوى فيه مشهد الحكم بغيبه . ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

ولما سأل سيدنا رسول الله ﷺ أبا ذر : « كيف أصبحتَ يا أبا ذر؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم[(١)] »

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس أبا ذر ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، وذلك فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للذين استجابوا لإنذار رسول الله وانتفعوا به : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ (١٨) ﴾[فاطر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يقيمون الصلاة أى : يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرنا هى العبادة الوحيدة التى لا تسقط عن المكلَّف بحال ، فقد يطرأ عليك ما يُسقط الزكاة أو ما يُسقط الصيام أو الحج فلم تَبْقَ إلا شهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله . وهذه يكفى أنْ تقولها ولو مرة واحدة .

أما الصلاة فهى العبادة الوحيدة الملازمة للمسلم ؛ لأن الصلاة فى حقيقتها استدامة الولاء لله تعالى ، فَربُّك يدعوك إلى لقائه خمس مرات فى اليوم والليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟ أيكون بها عَطَب بعد ذلك ؟

أما إذا أردتَ مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فَدُونه أبواب وحُرَّاس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا تملك أنت من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، إنك تستأذن فى أوله ولا تملك الانصراف فى آخره .

أما لقاؤك بربك فخلاف ذلك ، ففى يدك أنت كل عناصر اللقاء ، فأنت تبدؤه متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجى ربك فيه بما تريد، تبثّه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب .

وبعد أنْ ذكر الحق سبحانه هذه العبارة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ (١٨) ﴾[فاطر] يعنى : عبادتك عائدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى منها بشىء ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

فهو سبحانه غنى عَنَّا ، ونحن بعبادتنا لله لم نزده سبحانه صفة كمال لم تكن له ؛ لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلَّفنا . لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً ، ذلك أنِّى جوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كن فيكون»[1] .

إذن : نحن صَنْعة الله ، وما رأينا صانعاً يعمد إلى صَنْعته فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويُهذِّبها ويعتنى بها ، حتى إنْ أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه فى النهاية لصالحك .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : المرجع والمنقلب يوم القيامة ليفصل بين الخصوم ، ولينال كل ما يستحق ، فمَنْ أفلت من العقاب فى الدنيا فهناك مصير سيرجع إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧).

هذه حقائق يقررها الحق سبحانه ، فالمتناقضان لا يستويان ؛ لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتفادى الأخطار ، أما الأعمى فلا بُدَّ له من مرافق يتطوع بصداقة عينه السليمة للعين الغائبة ، لذلك نقول : إنْ أعطى الأعمى للعمى حقه صار مبصراً ، كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، فحين ينادى على مَنْ يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده ، أما إنْ تعالى فسرعان ما (يندب) على وجهه .

والعمى والبصر حسِّيات توضح المعنوى ، فالمراد لا يستوى الجاهل والعالم ؛ لأن حركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية : تأتى وتذهب ، تزرع وتقلع .. إلخ وحركة قيمية معنوية ، وهى الروحانيات والأخلاقيات العالية ، مثل معانى : الإيمان ، الصدق ، الوفاء ، العدل ، الرحمة .. الخ .

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسىٍّ يهديك حتى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور معنوى يهدى خُطَاك كى لا تضلّ ، هذا النور المعنوى هو المنهج الذى قال الله فيه :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

[المائدة]

فالشمس هى النور الحسى ، والقرآن هو النور المعنوى ؛ لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بالنُّوريْن.

الحق سبحانه سبق أنْ ذكر لنا التقابل بين الماءيْن العذب والمالح ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] نعم ، لا يستويان ، لكن العلاقة بينهما علاقة تقابل كالليل والنهار ، لا علاقة تضادٍّ كالأعمى والبصير ، بدليل أن الله جمعهما معاً ، فقال : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢)﴾[فاطر] فإن اختلف المتقابلان ، فلكل منهما مهمة يؤديها ، فهما متساندان لا متعاندان .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول : ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)﴾ [فاطر] ، لأن النور هو مصدر الإبصار فالمبصر لا يرى شيئاً فى الظلمة .

هذا فى العمى والبصر الحسى ، أما القيم والمعنويات فلها مقياس آخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو أعمى بصيرة . والأعمى فى المعنويات هو الذى يجهل الحكم الذى يهديه إلى منطقة الحق فى كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام .

وحين تتأمل أسلوب هاتين الآيتين . تجد فيهما ملمحاً من ملامح الإعجاز فى كلام الله ، فالأولى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩)﴾ [فاطر] قرنت بين الاثنين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)﴾ [فاطر] فذكرت (لا) النافية الدالة على توكيد عدم الاستواء ، فلم يَقُل الحق سبحانه كما فى الأولى : ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد تجتمعان فى الشخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافراً ويؤمن ، فيطرأ عليه الوصفان ؛ لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما الظلمات والنور فهما متقابلان لا يجتمعان .

كما تلحظ فى دقة الأداء القرآنى ؛ لأن الحق سبحانه هو المتكلم ، فقال : ﴿ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) ﴾[فاطر] فالظلمات جمع والنور مفرد ؛ لأن مذاهب الضلال شتى ، فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد الأصنام ، وهذا يعبد الملائكة .. الخ . أما النور فواحد ، هو منهج الله المنزل فى كتابه .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلِّم أصحابه هذا الدرس خَطَّ لهم خطاً مستقيماً ، ومن حوله خطوط متعرجة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) ﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجتمعان ، كذلك ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾[فاطر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه أعاد ذكر الفعل المنفى﴿ وَمَا يَسْتَوِي (٢٢) ﴾[فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحى والميت .

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ؛ لأن كلمة الأحياء تعنى المؤمنين الإيمانَ الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باقية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأبَّوْا على منهج الله . أو : أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هى العيش بمنهج ربهم الذى يؤدى بهم إلى الحياة الحقيقية الباقية التى قال الله عنها :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة المرادة فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤) ﴾ [الأنفال] كيف وهو يخاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إذن : المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التى لا تنتهى بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

ومن المعانى التى نفهمها من عدم استواء الأحياء والأموات أن الحىَّ خلقه الله وأمدَّه بأجهزة نفسية : عقلاً ، وأعصاباً ، وعضلات ، وسمعاً وبصراً .. الخ وهذه الأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أنْ يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنِعَم أخرى ، ثم ليعلم أنه فى رحلة حياته لا بُدَّ أنه سيموت ، لكن ربه عز وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عَيْن البيان ، وليظل على ذِكْر له طوال الوقت وينتظره فى كل لحظة ، فعمرك محسوب بعدٍّ تنازلى ، وسهم الموت أُطلِق فى اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال فى التكليفات فقال : لا يستوى الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوى نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المآل ، فيقول : ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) ﴾[فاطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفى موضع آخر قال : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ [النساء] والحَرُور كناية عن العذاب وشدة حَرِّه .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ومُسلِّياً له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر] النبى ﷺ جاء على كفر

وجهالة من قومه ، فكانت دعوته أنْ يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويُخرِجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان .

وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه يكاد يُهلك نفسه فى سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ (٢٢) ﴾[فاطر] أى سماع هداية وإقبال ، وإلا فَهُمْ جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماعُ إعراض وسماعُ إقبال ، منهم مَنْ يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ، ومنهم مَنْ يسمع ثم يُعرض وينصرف عما سمع ؛ لذلك قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾ [الأنفال]

إذن : يا محمد ، لقد أديتَ ما عليك نحوهم ، وخاطبتَهم خطابَ هداية ، وخطابَ تهديد ووعيد ، فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر] فجعلهم الله لعدم سماعهم كالأموات ، وإلا فرسول الله خاطب أهل قليب بدر من الكفار حين وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل أليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

فقال عمر : أتكلمهم وقد جَيَّفوا ؟ قال ﷺ : « والله ، ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »(١)

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسُحِبوا ، فأُلقوا فى قليب بدر .